الأيام

انتفاضة الأقصى وانهيار الاستراتيجية الشارونية

بقلم: الدكتور هشام فرارجة*

معتمداً على تاريخه المتسم بالعنجهية والجراءة لارتكاب المجازر بحق الشعب الفلسطيني، استطاع شارون ان يصل الى سدة الحكم في اسرائيل تحت مظلة من الوعود التي كالها للاسرائيليين بتوفير الأمن والسلام لهم، ولا شك في ان شارون الذي تزعم المعارضة الاسرائيلية لفترة قصيرة من الزمن قبل تسلمه رئاسة الوزارة كان متسلحاً بأفق محدود ضيق ازاء ما يمكن ان تقود اليه افعاله من نتائج.

فهو في انتهاكه حرمة المسجد الاقصى في ٢٠٠٠/٩/٢٨ كان كمن يعرف أنه سيؤجج المشاعر ويسهم في اشعال فتيل الانتفاضة التي كانت تتقد، ليحرج باراك من ناحية بتبيان عدم قدرته على ضبط الشعب الفلسطيني المقاوم، ولكي يجهز على الشعب الفلسطيني من ناحية ثانية، اشباعاً لرغباته وسعياً لتحقيق امانيه في اواخر عمره، ورغم انه نجح في صب الزيت على النار وفي وضع الجمر في حجر باراك حتى استقالة الأخير في ظل انتفاضة متصاعدة متطورة، ورغم استطاعته كسب ود رأي عام اسرائيلي تغلغل اليأس الى صفوفه وحار ازاء ما تقتضيه المرحلة، الا انه بات واضحاً انه ومنذ اعتلائه رئاسة الحكومة الاسرائيلية كانت قد اختلطت احلامه بالأوهام وطموحاته بالاحباط ووضحت رؤياه التي كان يدعيها بضبابية غاشمة وبالرغم من استخفافه بالفلسطيني واعتقاده ان المعجزات المحققة بالأمن الاسرائيلي لا يسعها الا ان تنتظره ، الا ان صورة المنقذ التي عكف على ترويجها سرعان ما ذابت في الدماء التي ما زالت تراق، جاعلة أمنه المزعوم يتبدد اسرع مما كان يعتقد او يتوقع.

والاستراتيجية التي ارتكز عليها شارون في محاولاته لاخماد انتفاضة الاقصى جلبت على الاسرائيليين ويلات وخيمة بعكس ما كانوا يأملون وسراب المائة يوم لقمع المنتفضين وتمكين الاسرائيليين من ان ينعموا بالأمن والاستقرار المفقودين قد تحول الى الف جرعة وجرعة من الاحساس بالندامة على الانصياع لاغراءات شارون وانتخابه على برنامج من العنف والسفك للدماء، فلا امن اسرائيلياً شخصياً او قومياً عاد في الحسبان، وشارون المخلص هو نفسه اصبح بحاجة الى خلاص بعد ان صار عالة وعبئاً محلياً واقليمياً ودولياً لا يطاق، وكل ما ابتكره من وسائل القتل والتدمير القى بشظاياه، ليس على الفلسطينيين العزل فحسب، وانما ايضاً على منتخبيه الاسرائيليين، وشارون الذي لم يأل جهداً للحظة في تنفيذ مخططاته لا شك تجتاحه موجات عارمة من خيبة الامل، فغلوه في ابتداع استراتيجية شاملة متكاملة لاسكات انتفاضة الاقصى لم يعطه سوى احباط وفقدان للتوازن بشكل يتنامى يوماً بعد يوم، وما اعتقد انه يتمتع به من دعم وتأييد في اوساط المتطرفين من بين الاسرائيليين لا محالة الا انه آخذ في الافول والاضمحلال.

والهالة التي تمكن من احاطة نفسه بها عبر كل سني خدمته العسكرية الطويلة بدأت بالتحطم على صخرة انتفاضة شعب لم يعرف اليأس سبيلاً اليه رغم كل الآلام.

وفي تعامله مع انتفاضة الاقصى، لم يتوان شارون في تكريس كل جهوده وامكاناته من اجل تحقيق مآربه، وفي سبيل ذلك، بلور شارون استراتيجية تقوم على الوصول الى حالة من التجويع والتركيع والتطويع والترويع للشعب الفلسطيني المنتفض، فاطلاق العنان لجنوده ومستوطنيه لجرف المزارع والبيارات الفلسطينية واقدامهم على حرق آلاف الاشجار المثمرة، ولا سيما اشجار الزيتون التي تضرب جذورها عميقاً في التاريخ، لا يقصد منه الانتقام من الفلسطينيين فحسب، وانما العمل على حرمانهم من مصادر الرزق ومتطلبات الحياة الأساسية لسنين مقبلة بهدف ايجاد العوامل اللازمة لتجويعهم من اجل قتل الروح والجسد فيهم.

فلا يمكن تعويض أية غرسة تقتلع بأخرى مثمرة قبل اقل من خمسة اعوام، وشارون يدرك ان حملات الجنود والمستوطنين التخريبية في المزارع والارياف الفلسطينية تحمل في طياتها بعداً استراتيجياً لخدمة مخططاته الرامية الى كسر شوكة الشعب الفلسطيني واسكات انتفاضتهم، فحملات التدمير للبنية المعيشية للفلسطينيين لسيت عشوائية، ومبعثرة وثأرية بمقدار ما هي منظمة مخططة ترمي الى تحقيق اهداف استراتيجية واضحة.

وسعياً وراء رغباته في تركيع الفلسطينيين، شعباً وسلطة، يقوم شارون باستجماع قدر كبير من آلته العسكرية المدمرة لكي تصب جام غضبها على البيوت والمؤسسات الفلسطينية بمختلف انواعها بغرض ايصال الفلسطينيين الى حالة من التسليم بالأمر الواقع المتسم بتفوق الآلة العسكرية الاسرائيلية وجلاء العنت الشاروني التمادي، فحتى طائرات الـ اف ١٦ التي تستخدم عادة في الحروب العسكرية الكلاسيكية كان لها النصيب في الاستخدام من قبل شارون الحائر الباحث عن كل السبل لتقويض اواصر المقاومة الفلسطينية واستباحة المناطق الآهلة بالسكان الفلسطينين من قبل الآلة العسكرية الاسرائيلية بأدواتها البرية والبحرية والجوية يقصد من ورائها خلق حالة من الألم العميق عند المدنيين الفلسطينيين، ومن ثم التمرد على مجموعات المقاومة ضد الاسرائيليين، ولا شك في ان مسلسلات شارون المتتابعة في العلاقات العامة لاظهار الفلسطينيين بأنهم الطرف المعتدي على الاسرائيليين الراغبين في الأمن والسلام ، حتى لدرجة الاعلان بشكل احادي غير مشروط عن وقف لاطلاق النار ، يصب في مخططه الساعي الى محاصرة الفلسطينيين اعلامياً وسياسياً ودبلوماسياً، خاصة بعد ان تمكنت انتفاضة الاقصى من وضع القضية الفلسطينية مرة اخرى على قمة المسرح الدولي الذي غيبها واهملها لفترة ليست بالوجيزة، ومحاولات شارون المتكررة للظهور بمظهر الحمل الوديع امام الرأي العام العالمي وفي المحافل السياسية والدبلوماسية يريد ان يحقق من خلالها فرض كافة شروطه واشتراطاته على الفلسطينيين بغرض تطويعهم واجبارهم على قبول املاءاته اللامتناهية.

ولا شك ايضا في ان لجوء شارون الى عمليات الاغتيالات والتصفيات للقيادات الفلسطينية الميدانية، بالرغم من كل تفوهاته المنصبة على ضرورة (ايقاف العنف)، يظن انه سوف يستطيع عن طريقها ترويع الفلسطينين وخلق جو من الرعب في صفوفهم، وهو يقصد ايضا من خلالها ان يُبقي على رسائله حية لجميع عناصر المقاومة بغرض كسر ارادتهم واضعاف تصميمهم على الاطاحة به وبتاريخه الارهابي وباحتلاله.

ولكن، ليس هناك من شك في ان اعتماد شارون على هذه الاستراتيجية التجويعية التركيعية التطويعية الترويعية لم ولن يمكنه من تحقيق اوهامه بجلب الأمن والاستقرار للاسرائيليين الذين كم هم بحاجة ليبحثوا عن عقلانية بدلاً من عنجهية وعن خلاص عوضاً عن رصاص.

فانتفاضة الاقصى ، بعكس الكثير من التخوفات والتوقعات، تبطل الاستراتيجية الشارونية وتثبت عقمها وتجعل من انذار المائة يوم اضحوكة وسخرية وركاماً في ملفات الاحتلال الذي لا يجر وراءه الا اذيال الهزيمة والفشل، ولا شك في ان استمرار انتفاضة الاقصى وتصاعدها سوف يجعل من شارون نفسه ايضاً سراباً ووهماً مدمياً تماماً كما هي تهديداته وتخبطاته ، وذلك في القريب المنظور بصرف النظر عما يقوم به من مغامرات ضد الفلسطينيين وارضهم.

---

* استاذ العلوم السياسية في جامعة بيرزيت